

الحركة الوطنية الجزائرية بين النضال
القيادي والنضال الجماهيري

أ. أحمد مسعود

جامعة محمد بوضياف

لقد شكلت الوطنية الجزائرية للجزائريين ديناً جديداً، وُعداً حياتياً غمر هؤلاء، فمع بداية القرن العشرين كانت الجزائر واقعة في مفترق الطرق ، فالأسئلة التي كانت مطروحة هي من نحن ؟ وأي سبيل نتبع ؟ دالة دلالة واضحة على حالة التيه التي كانت عليها !

ذلك أن الجماهير الشعبية التي كان قد فتك بها الفقر والجهل ، كانت خاضعة فكرياً وروحياً لأسياد ! يعتبرون كل خطاب عقلايين كفراً وإلحاداً ، فالحكايات التي كانت تمجد عهد البطولات الإسلامية و الغزوات الكبرى ، ظلت تغذي الأمل في نفوسهم ، وكانت النبؤات العديدة تقنعهم بأن الله لا يخذل عباده أبداً، فالهروب إلى عالم الخيال و الماورائيات كان جواباً قاسياً من دون شك على إهانات الزمن ونكباته!.

ويبدو أن الاستعمار قد نجح من دون شك في عزل الإسلام وتفريغته من محتواه الاقتصادية (بعد أن الحق نظام الأوقاف وممتلكاتها بإدارة الاحتلال) وبالتالي أعاق مشاركة المدينة في النهضة الإسلامية والكفاح لأجل استرجاع السيادة المغتصبة ، ولعل ذلك هو الذي دفع بجمعية العلماء المسلمين إلى أن تركز في عملها على التراث العربي الإسلامي لتستنهض به الهمم و تسعى لإيجاد منارات ثقافية داخل المدن تعيد لها وجهها الحقيقي .

لقد عاش الجزائريون المأساة في حواشي المدن وظلوا عرضة لجميع الآفات فلا الإطار التقليدي* للمدينة آواهم بعد أن غدت الثقافة الإسلامية التي احتوتها الطرق الصوفية لا تشكل سوى طقوس أقل ما يقال عنها أنها كرسست مظاهر التخلف و الجمود ، ولاهم استوعبوا الثقافة الفرنسية بعد أن قدمت لهم

في قالب أفرغ من جميع مضامينه ، فساروا بذلك نحو الجهل و الأمية مثلما تقاذفتهم الأوضاع الاقتصادية برمتها !.

وهكذا فإن الجماهير الشعبية المسحوقة ظلت ولأسباب ثقافية تتعرف على نفسها في صفوف الأولياء والأعيان الذين كانوا يحنونها على الخنوع، ويبدو أن هذا التصور الشعبي انبنى على أن الأولياء والأعيان لم يكونوا يقلدون الأوربيين خلافا للنخبة الجزائرية المستنيرة المتخرجة من المدارس الفرنسية.

ومع انتشار وسائل الاتصال السريعة والأفكار الجديدة (عبر الصحف،المجلات، الكتب النوادي الجمعيات) والحركية الاجتماعية بفعل (الخدمة العسكرية وحركة الهجرة) مع انتشارها، بدأت سلطة الأشراف والأعيان تتلاشى ،وأخذ إشعاعها يخفت ودعائم تواجدهم تنهافت ، تلك الدعائم التي كانت قائمة على الثروة ، الولاء والعنف أما ثروتهم فإنها لم تعد قادرة على تعهد جيش من الموالين بعد أن عجزوا في الاندماج ضمن الاقتصاد الكولونيالي القائم على التبادل النقدي و الربح المالي، وتمكن المعمرين من السيطرة على التجارة ، الصناعات، و المهن الحرة ، فكان من الطبيعي أن تقلص الثروة يلحقه دائما تقلص النفوذ⁽¹⁾.

كما أن التطور الثقافي الذي واكب الحرب العالمية الأولى تمخض عنه ظهور نخب جديدة حملت معها أفكارا مغايرة تماما لعهد الجزائر القرن التاسع عشر، جعل من الوجهاء والأعيان يمثلون قوة سياسية بالية، بعد أن أضحت إدارة الاحتلال ذاتها تتخلى عن التعامل معهم ورأت أنهم عجزوا عن استيعاب الجماهير الشعبية التي أخذت تتطلع إلى التعبير عن نفسها ضمن أطر جديدة تمكنها من تجسيد مطالبها في الميدان⁽²⁾.

كما أن زوال سلطة الأشراف والأولياء جاء نتيجة تقلص ثروتهم ودائرة الموالين إليهم فإن عنفوانهم سرعان ما أفل في نفوس الجماهير الشعبية بعد أن واجهته الفصائل الصدامية التي أوجدها حزب الشعب الجزائري (1937-1939) و التي كانت تجوب القرى و المداشر وتواجه عملاء الأعيان، فحررت بذلك النفوس وانتقل بذلك الرعب المسلط على الشعب إلى الأعيان أنفسهم . وعليه فإنه خلال عقد من الزمن (1926-1937) تغيرت العلاقات ما بين مختلف الجماعات النخبوية، تلك النخبة التي ظلت إلى تلك الحين لا تعبر على كل القطاعات الاجتماعية، بل كانت تشكل عسبا مرتبطة بجماعات ضيقة زعمت امتلاك المعرفة (الدراية بشؤون الدين و الدنيا) والتمثيل ، فمن رحم المأساة التي عاشها الجزائريون، ومن حالة الاستلاب التي عمل الاستعمار لأجل تكريسها بغية جعلهم رعايا مطيعين، من هذه الأوضاع انبثقت الجزائر الفتاة بانبعاث الوطنية الجزائرية من جديد في شكل عقيدة جديدة اعتنقها الجزائريون للتخلص من نير الاستعمار، التي أذهلت المتتبعين لأوضاع الجزائر على عهد الاحتلال أن هذه الاستفاقة ظهرت في المدن وعلى حواشيتها ، ذلك أن حروب الإبادة التي شهدتها الريف الجزائري و القوانين الزجرية التي انجرت عنها دفعت بهم نحو هجرة مزدوجة سواء إلى الداخل و الخارج، وغني عن التعريف لما لدور الهجرة من أثر بالغ الأهمية في انتعاش الحركة الوطنية الجزائرية وحينئذ بدأت عملية استرداد المدينة أو تعريبها⁽³⁾ أو ما عرف بالغزو المسالم للأهالي للبلد⁽⁴⁾ فمع تنامي حركة الوعي الوطني بظهور الأحزاب السياسية بعد ح.ع.1 أنساق الجزائريون مع حركة النجم الشمال الإفريقي (1926-1937) ثم مع حزب الشعب الجزائري (1937-1939) وأثناء ح.ع.2 مع حركة

أحباب البيان (مارس 1944، ماي 1945) انساقوا لخوض حرب الاستقلال ضمن استراتيجية جديدة تركزت على أساليب وطرق نضالية جديدة لم تعدها الجزائر من قبل بعد أن غدت المدن مؤهلة للعب دور فعال في معركة لاستقلال، وهي بذلك أصبحت ميدان بكر لنشاط تيارات الحركة الوطنية وشكل جمهور الجزائريين الذين كانوا على الحواشي نبعاً لا ينفد تستعين به للتأكيد على مطالبها عبر تعبئتهم وتجنيدهم في صفوف خلايا حزب الشعب الجزائري، وأصبح بذلك مفهوم الحزب يعوض لدى الجزائريين مفهوم القبيلة ومفهوم المظاهرات والاعتصام يعوض مفهوم الجهاد، وهي بذلك أي الحركة الوطنية الجزائرية كانت تبطل فكرة الاستكانة للوجود الفرنسي بالجزائر التي ظل رواد مدرسة التاريخ الفرنسية يروجونها لها بغية إضفاء الشرعية على ما قامت به إدارة الاحتلال، ولئن وردت هذه الفكرة فإنها لم تشمل جميع الجزائريين باستثناء جنوح ثلة منهم، آثرت المذلة والخضوع للاستعمار، وانسلخت بذلك عن كيانها خدمت لمشروع التعايش - المزعوم - الفرنسي الجزائري، وبناء على ذلك قامت مدرسة التاريخ الفرنسية بالتأسيس لهذه الفكرة واعتبرت أن الجماهير الشعبية كانت تحمل القابلية للاستكانة⁽⁴⁾، ومنه خلصت إلى أن تاريخ النضال الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي لم يكن البتة نضالاً جماهيرياً لأجل استرجاع السيادة الوطنية، بل كان عبارة عن حركة عصيان وتمرّد قادتها زعامات قبلية مثلما كان الحال بالنسبة للمقاومات الكبرى التي شهدتها الجزائر طيلة القرن 19 م، أو حركة تمردية ورطت فيها الجماهير جراء حالة الانسداد السياسي التي كانت تمر عليها الجزائر خلال فترة بين الحربين العالميتين وبعد ح.ع. II، بعد أن تأثر قادتها بأفكار الشيوعية العالمية وأفكار القومية

العربية ، وهو ما ينطبق على حد تعبير رواد مدرسة التاريخ -الفرنسية. على مظاهرات الثامن ماي 1945 ثم أثناء وخلال الثورة التحريرية، وهي بذلك أي المقاومات وحركة الاحتجاجات و الثورات ... لم تكن تحمل مشرعا سياسيا هادفا .

ومن هذا المنطلق حاول المؤرخون الفرنسيون تقويض أسس نضال الحركة الوطنية الجزائرية تارة بالتقزيم من حجم استيعابها للجماهير الشعبية ، ومحاولة حصرها في مجموعة من بعض الزعامات الطرقية التي ظلت تحن إلى عهد البطولات و الغزوات الإسلامية الكبرى - مثلما كان الأمر بالنسبة لمقاومة الأمير عبد القادر - أو زعامات قبلية فقدت مركزها الاجتماعي بفعل سلسلة القوانين الخاصة التي تفرضها إدارة الاحتلال - وهو ينطبق على ثورة الحاج المقراني (5) وتارة أخرى بالتشكيك في أساليب نضالها وأهدافها و تضليل الرأي العام عن طريق محاولة إثبات أنها تستلهم أفكارها من قوى معادية لمبادئ الحرية تأثرت بثقافة عسكرية كانت وليدة تلك الفترة - إشارة إلى انتشار مبادئ الفاشية و النازية خلال فترة ما بين الحربين - وهو التفسير الذي يقع على تلك المنظمات الشبه عسكرية التي أنشأها حزب الشعب الجزائري قبيل اندلاع ح.ع.2 منها اللجنة الخضراء 1938 واللجنة الثورية لشمال إفريقيا ثم منظمة الشباب و الجيش الثامن سنة 1939 (6).

و الظاهر أنه بالرغم ما قامت به إدارة الاحتلال طيلت قرن وربع قرن من حركة طاحنة سعت لتفكيك المجتمع الجزائري لصنع الجزائر فرنسية والحفاظ عليها فإن مؤرخي فترة ما بعد الاحتلال سعوا لأجل استلاب الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري و تقزيم نضال أجيال برمته، لكن المتتبع لوقائع تاريخ الجزائر،

ستستوقفه محطات في نضال الحركة الوطنية الجزائرية ، هذه المحطات كانت حصيلة لتجارب مقاومات عسكرية كبرى انتهت بالفشل مع نهاية القرن 19 م لكنها توجت بنضال سياسي بدأت بوادره تظهر مع مطلع قرن 20 في شكل عرائض ، جمعيات ونوادي نضال كان أكثر فاعلية تمكن من تأطير الجماهير الشعبية في أطر نضالية جديدة - الاحتجاجات المظاهرات - هذه الأطر أعطت للحركة الوطنية الجزائرية فاعلية وديناميكية جديدتين كانتا كفيلتين لتبلور مفهوم الوطنية في شكلها الحديث ، فالمظاهرات كأسلوب سياسي لم تعد تقتصر على الوجهاء و الأعيان مثلما كان الحال في بداية لاحتلال بل أخذت بُعداً جماهيرياً تشكل مع مر الزمن حاملاً معه كل المآسي التي عاشتها الجماهير المسحوقة ، فذكرى الاحتلال و المجازر التي ارتكبتها جيش الاحتلال وأعمال النهب و السلب التي طالت الممتلكات و المساس بالمقدسات قد أصابته في أعماقه، ليضاف إلى ذلك مزيد من الإذلال بمأساة كان وقعها شديداً على نفوس الجزائريين إثر الاحتفالات بالذكرى المثوية للاحتلال الفرنسي سنة 1930 لقد أحييت فيه من جديد جراحه وجعلته يعيش تارة أخرى وقع الإهانة، فكانت بذلك حالة التوترات الاجتماعية والاضطرابات التي شهدتها الجزائر خلال فترة ما بين الحربين عبر حركة الاحتجاجات التي اجتاحت مدن قسنطينة و العاصمة وهران سنة 1934، رد فعل طبيعي ضد سياسة القمع الاستعماري التي كانت إدارة الاحتلال تمارسه، وما تجربة المؤتمر الإسلامي سنة 1936 إلا محاولة توحيدية لنضال الحركة الوطنية الجزائرية ، لتضمن ضمن تجربة ثانية كانت أكثر وقعا في إطار حركة أحباب البيان و الحرية (مارس 1944)، انتهت بمظاهرات كبرى في 8 ماي 1945 كادت أن تقوض أسس الغطرسة الاستعمارية وأرهبت

عتاة المعمرين وجعلت من رواد الفكر الاستعماري يقفون حيارى حيال حركة الزخم الكبير التي اجتاحت مدن الجزائر إذاك.

ويبدو للملاحظ المنصف أن حركة الثامن من ماي 1945 انطلقت منذ شهر أفريل عمليا في شكل حركة احتجاجية ثم مظاهرات لتنتهي في الأخير بانتفاضة عارمة شكلت حركة من السيل الجارف أساسه الجماهير الشعبية ضمن إطار واحد، أي حركة أحباب البيان ونحو هدف واضح وهو استرجاع السيادة الوطنية المغتصبة حينها علل رواد مدرسة التاريخ الاستعمارية حركة الزخم الكبير هذه بأنها مغامرة ورطت فيها الجماهير الشعبية من طرف قادة الأحزاب المنحلة بفعل حالة الانسداد السياسي التي آلت إليها أوضاع الجزائر بعد رفض ديغول لبيان فيفري 1943⁽⁷⁾.

وسيتواصل هذا التضليل و التزييف لتاريخ الجزائر لاحقا، فإضراب الثمانية أيام الذي دعت إليه ج.ت.و في فيفري 1957، و الذي انتهى بمعركة الجزائر، اعتبر أيضا دلالة عن حالة اليأس التي وصل إليها قادة الثورة -التي أُلقت بالجماهير الغزّل لمواجهة الجيش، و هو نفس الموقف الذي سجلناه إثر مظاهرات الحادي عشر ديسمبر 1960 التي جاءت لتفند كل هذه الأباطيل وتؤكد أن حركة الزخم الكبير التي كانت تجتاح بين الفينة والأخرى مدن الجزائر كانت حصيلة لمسار مشترك من المعاناة، عبرت بدورها عن غضب جامح بغية وضع حد لمأساة جارحة.

الهوامش

- 1- اندري نوشي : دور المدن الجزائرية في العقد الثامن من ق 19 بحوث الندوة الأولى لتاريخ الحركة الوطنية التونسية ماي .1981
- 2- محمد حربي : الثورة الجزائرية وسنوات المحاض ت.ترجمة عيسى حنفي
*-مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة و المجتمع : ط.م.و.ك الجزائر 1983 ص.76.
- 3-M^{ed} Harbi : le .FLN, mirage et réalité, des origines à la prise du pouvoir 1945-1962, Alger, 1993 P.26.
- 4- جيلالي صاري : ظاهرة التزييف قبل الثورة الجزائرية .مجلة الثقافة عدد 83 الجزائر .1984
- 5-M^{ed} Harbi, le FLN, mirage et réalité, op.cit. p 274.
- 6-Charles Robert Ageron : les Algériens musulmans en France 1971-1919 Ed, Presses de la cité, Paris 1968. T:I.p225.
- 7- محمد العربي الزبيرى : الحركة الوطنية الجزائرية في مرحلة النضج، مجلة الرؤية ط.المركز الوطني للدراسات والبحث في ح.و.ج.وثورة أول نوفمبر 1954.
- Philippe Trépier, Autopsie de la guerre d'Algérie, Ed , France Empire, Paris 1972